المفاضلة بين الشعر والنثر في الفكر النقدي القديم

م.م. ثاير فالح علي *كلية التربية الاساسية / جامعة ديالى*

المقدمة :

ان الفكر النقدي عند العرب لمَ ينِ قط عن عقد المفاضلات بين كل من الشعر والنثر . والغالب على هذه المفاضلات وجود فاصل ، ولم تكن الحجج التي يسوقها كل فريق قادرة على انَ تثُبت امام نقد الفريق الاخر ، وكانت المفاضلة مجالاً يتأثر بتغير ظروف كل جنس ومدى تمكنه من الحياة الثقافية .

ان المفاضلة بين الشعر والنثر كان لها حظ واسع في تراثنا الادبي ، وقد رأينا أن معظم المفاضلات لم تكن تتبني على أسس موضوعية ، وكثيراً ما كان الموقف القَبليّ هو الذي يوجه آراء هذا أو ذاك ممن يفاضلون بين الجنسين ، ولكن ثمة من النقاد من لم يشأ أن ينزلق الى المفاضلة ، بل رأى أن الجنسين يتكاملان .

وبعد فقد بدا لنا أن القدماء ينقسمون في امر المفاضلة على قسمين : قسم انحازت فيه طائفة للشعر واخرى للنثر ، والقسم الاخر لمن انصف الطرفين فأعطى لكل جنس حظه من الانصاف

وتعرّضت في هذا البحث الى :

١- المتحيزون الى الشعر .

٢- المتحيزون الى النثر .

٣- آراء محايدة .

١-المتحيزون للشعر

اقدم ما وصلنا من مفاضلة بين الشعر والنثر ما ورد على لسان معاوية ابن ابي سفيان في القصة التي جرت بينه وبين هدبة بن خشرم حين قال له هدبة " اتحب أن يكون الجواب شعراً أم نثراً ؟ فقال : بل شعراً فإنه أمتع " [١]

وعندما اخذ النثر يشتد عوده ويمتد الى افاق لم تكن له من قبل عند ذاك صار التنافس بينه وبين الشعر أكثر حرارة وأصبحت المفاضلة أكثر الحاحاً واعتبار الوزن والقافية سبباً في تفضيل الشعر على النثر امرٌ قاله عبد الصمد الرقاشي عندما سئل " لم تؤثر السجع على المنثور وتلزم نفسك القوافي واقامة الوزن " فقال : " إن كلامي لو كنت لا امل فيه الا سماع الشاهد لقلَّ خلافي عليك ، ولكني اريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وبقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور اكثر مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عُشْرُه ولا ضاع من الموزون عشره " [٢] .

وما قاله الرقاشي اكده الجاحظ حين جعل الوزن في الشعر هو الامر المعجز فيه [٣] . ومع ان المرء يجد في كتابات الجاحظ كثيراً من الشواهد والادلة على فضل الشعر فإنه مع ذلك لا يمكن ان يخلص منها بأن الجاحظ قد غبن النثر حقَّه ، وكيف يكون منه ذلك وهو الناثر الكبير .

كذلك فإن الوزن هو ميزة الشعر التي رآها كثير من القدماء سبباً لتفضيله على النثر ومن هؤلاء ابن قتيبة [٤] .

---

[١] – المبرد : الكامل ١٤٥٣/٣ .

[٢] – الجاحظ : البيان والتبيان ٢٨٧/١ .

[٣] – انظر : الحيوان ٧٥/١ .

[٤] – انظر : تأويل مشكل القرآن : ١٧–١٨ .

وابو هلال العسكري [١] والنهشلي [٢] وابن رشيق [٣] .

وهناك اسباب ومزايا اخرى ساقها من فضّلوا الشعر ولكنها لم تنطلق من بنية الشعر وجمالياته ، بل انطلقت من اشياء خارجية عنه ، فمن هذا القبيل ما ينقله ابو حيان التوحيدي من آراء المناصرين للشعر كقول الشاعر السلامي : ان " من فضائل النظم أن صار صناعة يرأسها ، وتكلم الناس في قوافيها ، وتوسعوا في تعاريفها وأعاريضها ، وتصرفوا في بحورها ، واطلّعوا على عجائب ما استُخزن فيها من آثار الطبيعة الشريفة " [٤] .

ومن تلك الحجج أيضاً : أنه " يقال : ما أحسن هذه الرسالة لو كان فيها بيت من الشعر ، ولا يقال ما أحسن هذا الشعر لو كان فيه شيء من النثر لأن صورة المنظوم محفوظة ، وصورة المنثور ضائعة " [٥] .

ومن هذا النمط من الحجج قول ابن نباتة السعدي (ت ٤٠٥هـ) : " إن من فضائل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه ، والحجج لا تؤخذ إلا منه إذ إن العلماء والحكماء والفقهاء والنحويين واللغوين يقولون " قال الشاعر " و " هذا كثير في الشعر " و " الشعر قد أتى به " وعلى هذا فالشاعر هو صاحب الحجة ، والشعر هو الحجة [٦] ولعل هذا القول يلزمه كي يكون حجة أن يكون منظوماً .

وعلى هذا النحو مضى شاعر آخر هو الخالع (ت ٤٢٢هـ) حين قدّم الشعر على النثر بناء على أن " للشعراء حلبة وليس للبلغاء حلبة " [٧] ولأن

---

[١] – ينظر : الصناعتين : ١٤١ – ١٤٢ .

[٢] – ينظر الممتع في صنعة الشعر : ١١ ، ١٥٥ ، ١٦١ .

[٣] – ينظر : العمدة ٧٣/١ .

[٤] – التوحيدي : الامتاع والمؤانسة ١٣٥/٢ –١٣٦ .

[٥] – المصدر نفسه ١٣٦/٢ .

[٦] – الامتاع والمؤانسة ١٣٦/٢ .

[٧] – المصدر نفسه ١٣٦/٢ .

للشعر فضيلة كبرى كانت " جوائز الشعراء التي وصلت إليهم من الخلفاء وولاة العهود والأمراء ... خارجةً عن الحصر " [١] كذلك فان الناس يقولون : ما أكمل هذا البليغ لو قرض الشعر ولا يقولون : ما أشعر هذا الشاعر لو قدر على النثر وهذا لِغِنَى الناظم عن الناثر ، وفقر الناثر الى الناظم " [٢] .

وهذا النمط من الحجج هو من نتاج الشعراء فإذا تحوّلنا الى النقاد ممن ناصروا الشعر وجدنا حججهم لا تخرج كثيراً عن هذا الطابع ، فابن رشيق مثلاً يتحدث عن ميزةٍ للشعر لا يَشرَكُه فيها النثر فيقول " من فضل الشعر أن الشاعر يخاطب الحاكم باسمه وينسبه الى أمه ، ويخاطبه بالكاف كما يخاطب أقلَّ السوقة ، فلا ينكر ذلك عليه " [٣] وإذا كان ابن رشيق قد خصص للحديث عن فضل الشعر الباب الأول من كتاب " العمدة " وبدأ فيه متحمساً كأنما يعطي الشعر كل مزية وفضل ، فأنه في هذا لم يكن بدعاً بين النقاد ، فنحن نجد في هذا الاتجاه من يخصص كتاباً برمته لنصرة الشعر ، وهذا ما صنعه المظفر العلوي في كتابه " نظرة الأغريض في نصرة القريض " ومما رآه في جملة مزايا الشعر التي فاق بها النثر قوة التأثير التي هي فيه ، وذلك " أن الكلام المنثور وإن راقت ديباجته ورقت بهجته ، وحسنت الفاظه ، وغربت مناهله ، إذا أنشده الحادي واورده الشادي .. لا يحرك رزيناً ولا يسلي حزيناً ، ولا يظهر من القلوب كميناً .. فاذاُ حوِّل بعينه نظماً ، ووسم بالوزن وسماً ، وألج الأسماع بغير امتناع ، وملك القلوب كما تملك الاماء في الحروب .. والشعر معدن تفضيل وإعجاز يشجّع الجبان .. ويسمح البخيل وإن برم ، ويستصبي الشيخ وان هرم " [٤] وحقاً

---

[١] – الامتاع والمؤانسة ١٣٦/٢ .

[٢] – المصدر نفسه ١٣٧/٢ .

[٣] – العمدة ٧٧/١ .

[٤] – نظرة الاغريض : ٣٥٩ .

إن للشعر تأثيراً في النفوس بيد أن مجرد تحويل الكلام المنثور الى منظوم ليس كفيلاً بأن يجعله مؤثراً .

٢- المتحيزون للنثر :

لم يكن غريباً قط أن يحظى الشعر عند العرب بمن ينتصر له ويعدّد مزاياه وأسباب فضله ، إذ إن الشعر فن أصيل مترسخ لديهم ، وانما الغريب أن ينهض مع ذلك من يزري بهذا الشعر لكي يقدّم بدلاً منه فّناً آخر هو النثر بل ان المرء يفاجأ حين يرى أن أنصار النثر المتعصبين له لا يقلون عن انصار الشعر ولكن المفاجأة تنتفي بالنظر الى ما حظي به النثر من تطور في العصور الاسلامية ولا سيما في القرن الرابع الهجري ، ففي هذا العصر برز النثر منافساً قوياً وخطيراً .

يلجأ أنصار النثر الى مبدأ المقايسة ، فأبو عابد الكرخي يرى ان الأصل لما كان أشرف من الفرع ، فان ذلك لابد أن يقرّر شرف النثر لأن " النثر أصل الكلام ، والنظم فرعه " [١] وأما أن النثر أصل الكلام فذلك ما يؤكده بقوله : " ألا ترى أن الإنسان لا ينطق في أول حاله من لدن طفوليته إلى زمان مديد إلا المنثور المبتدء والميسور المتردد ، ولا يلهم إلا ذاك ولا يناغي إلا بذاك ، وليس كذلك المنظوم ، لأنه صناعي " [٢] .

ومما يستخلصه من كون النثر طبيعياً أن " التكلف منه أبعد ، وهو إلى الصفاء أقرب " [٣] . كما يحتج الكرخي على شرف النثر بأن " الكتب القديمة

---

[١] – الامتاع والمؤانسة ١٣٢/٢ .

[٢] – المصدر نفسه ١٣٣/٢ .

[٣] – المصدر نفسه ١٣٣/٢ .

والحديثة النازلة من السماء على ألسنة الرسل بالتأييد الإلهي مع اختلاف اللغات كلها منثورة مبسوطة " [١] .

ويحتج ابن كعب الانصاري على شرف النثر بقريب من هذا فيرى " أن النبي (ﷺ) لم ينطق إلا به آمراً وناهياً ، ومستخراً أو مخبراً ، وهادياً وواعضاً ، وغاضباً وراضياً ، وماُ سلِب النظم إلا لهبوطه عن درجة النثر ، ولاُ نزّه عنه إلا لما فيه من النقص ، ولو تساويا لنظق بهما ، ولمّا اختلفاُ خصّ بأشرفهما الذي هو أجول في جميع المواضع ، وأجلب لكل ما يطلب من المنافع " [٢] .

وينحاز المرزوقي (ت ٤٢١هـ) الى جانب النثر ويحتج بجملة حجج منها " أن تأخر الشعراء عن رتبة البلغاء موجبة تأخر المنظوم عن رتبة المنثور عند العرب لأمرين : الأول أن ملوكهم قبل الاسلام وبعده كانوا يتبجحون بالخطابة ، ويعدونها أكمل أسباب الرياسة .. ويأنفون من الاشتهار بقرض الشعر ، والثاني أنهم اتخذوا الشعر مكسبة .. ومما يدل على أن النثر أشرف أن الاعجاز من الله سبحانه وتعالى والتحدي من الرسول (ﷺ) وقعا عليه دون النظم [٣] .

ويؤكد ضياء الدين بن الاثير وهو الناثر المعتد بنثره ان " المنثور أشرف من المنظوم " [٤] . ويسرد أسباباً لذالك منها " أن الآعجاز لم يتصل بالمنظوم ، وانما اتصل بالمنثور [٥] ومنها أن النثر فن أصعب من فن النظم بدليل كثرة الشعراء وقلة الكتاب [٦] .

---

[١] – الامتاع والمؤانسة ١٣٣/٢ .

[٢] – المصدر نفسه ١٣٥/٢ .

[٣] – شرح ديوان الحماسة ١٩/١ .

[٤] – المثل السائر ٥/٤ .

[٥] – المثل السائر ٥/٤ .

[٦] – المصدر نفسه ٦/٤ .

ويقول ابن طراره (ت٣٩٠هـ) : " ولشرف النثر قال الله تعالى : { إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً } ولم يقل لؤلؤاَ منظوماً ، ونجوم السماء منتثرة ، وان كان انتشارها على نظام ، إلا ان نظامها في حد العقل ، وانتشارها في حد الحسّ " [١] .

وكذلك يقول : " النثر كالحرة ، والنظم كالأمة ، والامة قد تكون احسن وجهاً وأدمث شمائل ، واحلى حركات ، إلا انها لا توصف بكرم جوهر الحرة ، ولا بشرف عِرْقها وعتق نفسها وفضل حيائها " [٢] .

ومن خلال هذه الآراء فقد افتقر كثير من انصار النثر الى الموضوعية في احكامهم على نحو ما كان من كثير من انصار الشعر ايضاً ، ومردُّ ذلك هو النظر بمنظار احادي الاتجاه بدلاً من ان يكون حركياً متعدد الاتجاهات ويستطيع المرء ان يلحظ ان اكثر من فضلوا النثر هم ممن احترفوا الكتابة او داروا في فلكها ، ومن ثمة كان تقديمهم للنثر دفاعاً عن حرفتهم ، وتعزيزاً لمكانتها . وفي المقابل فإن كثيراً ممن فضلوا الشعر كانوا شعراء او ممن بينهما يتصدون للتأليف في موضوع شعري .

٣-آراء محايدة

يجد المرء مع ذلك آراء يرى فيها اصحابها من الانحياز لجنس دون اخر ، بل اختاروا أن يركنوا للقول البليغ سواء كان شعراً او نثراً وهكذا يكون القول جميلاً

---

[١] – الامتاع والمؤانسة ١٣٤/٢ .

[٢] – العمدة ٧٦/١–٧٧ .

بحسب حظه من البلاغة والفن ، وبحسب مراعاته للمقام ، وهذا ما أفصح عنه ابن المقفع (ت ١٤٢هـ) في وقت مبكر فقال : " البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة .. منها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل فعّامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها ، والاشارة إلى المعنى ، والايجاز ، هو البلاغة .. إذا أعطيت كل مقام حقه " [١] .

كذلك فانه كثيراً ما كان يجري الكلام على الشعر والنثر من دون ان يبدو ما يفيد بتقديم جنس على آخر ولعلّ الجاحظ واحد ممن سلكوا هذا السبيل إذ يغلب على كتبه اهتمامه ببلاغة القول من دون اعتبار لجنس هذا القول ، ولعل هذا ما يفيده قوله : " ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن : كلثوم بن عمرو العتابي .. ومن الخطباء الشعراء الذين قد جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المخلدة ، والسّير الحِسان المدوّنة ، والاخبار المولدة : سهل بن هارون " [٢] .

ويقرر ابن وهب الكاتب ان الشعر والنثر يستويان في إمكان توافر البلاغة فيهما جميعاً ، يقول : " وفي الشعر والنثر جميعاً تقع البلاغة " [٣] .

واذا كان ابو حيان التوحيدي بدا متأرجحاً بين الانصاف والتعصب فانه في نصوص اخرى يبدو مّيالاً إلى عَدِّ أن الجنسين يتكاملان ولا يقتصر الحسن على واحد منهما دون الآخر ، وهذا ما يّستشف من قوله : " وأحسن الكلام ما رق لفظة ، ولطف معناه ، وتلألأ رونقه وقامت صورته بين نظم كأنه نثر ، ونثر

---

[١] – الجاحظ : البيان والتبيان ١/١١٥-١١٦ .

[٢] – البيان والتبيان ١/٥١-٥٢ .

[٣] – البرهان في وجوه البيان ١/١١٥-١١٦

كأنه نظم " [١] . وأوضح من هذا قوله : " والشعر كلام وان كان من قبيل النظم ، كما أن الخطبة كلام وان كان قبيل النثر ، والانتظام والانتثار صورتان للكلام في السمع وليس الصواب مقصوراً على النثر دون النظم ، ولا الحق مقبولاً بالنظم دون النثر " [٢] .

ويتمثل موقف أبي حيان الأخير واضحاً عند أبي الطاهر السرقسطي (ت٥٣٨هـ) في مقاماته إذ خصص إحداها " في النظم والنثر " [٣] وأجراها على لسان ثلاثة نفر : فتيين وشيخ ، إذ التقاهم راوي المقامات السائب بن تمام وتذكر المقامة أن كل فتى فضّل لجنس بعينه ، وراح من ثم يفيض في ذكر أسباب التفضيل محتجاً بكل ما يمكنه الاحتجاج به . وهاهنا نجد السرقسطي يستثمر ما وصله من مفاضلات ليضعه في هذه المقامة ، ولكن المهم في هذا السياق أن الرجل يختم المقامة برأي الشيخ الذي اراد به أن يفصل بين رأيي الفتيين ، وهو رأي يبدو توفيقيّاً ، إذ ان أي طرف من الشعر او النثر لا يغني دون قسيمه فهما يتكاملان ولا يتفاضلان ، وهكذا يقرر ان " القول الفائق هو الدر منظوماً او منثوراً " [٤] .

المصادر والمراجع

١- اخلاق الوزيرين : ابو حيان التوحيدي ، تح : محمد بن تاوين الطنجي ، ط المجمع العلمي العربي دمشق (د.ت) .

[١] – الامتاع والمؤانسة ١٤٥/١ .

[٢] – اخلاق الوزيرين : ٨ .

[٣] – المقامات اللزومية :٥٤٧ –٥٦٥ .

[٤] – المقامات اللزومية : ٥٥٨ .

٢- الامتاع والمؤانسة : ابو حيان التوحيدي ، تح : احمد أمين واحمد الزين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٩ .
٣- البرهان في وجوه البيان : ابن وهب الكاتب ، تح : احمد مطلوب وخديجة الحديثي ، ط١ ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٦٧ .
٤- البيان و التبين ، الجاحظ ، تح : عبد السلام محمد هارون ، ط١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ، ١٩٤٩ .
٥- تأويل مشكل القرآن : ابن قتيبة ، تح : السيد احمد صقر ، ط١ دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٤ .
٦- الحيوان ، الجاحظ ، تح : عبد السلام محمد هارون ، ط١ مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٣٨ .
٧- شرح ديوان الحماسة : المزروقي ، تح : أحمد امين وعبد السلام هارون ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥١ .
٨- الصناعتين : ابو هلال العسكري ، تح : علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل إبراهيم ، ط١ ، دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٢ .
٩- العمدة فن محاسن الشعر وادابه : ابن رشيق القيرواني ، تح : محمد قرقزان ، ط١ ، دار المعرفة بيروت ١٩٨٨ .
١٠- الكامل : ابو العباس المبرد ، تح : محمد احمد الدالي ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة بيروت ، ١٩٩٣ .
١١- المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر : ابن الاثير ، تح : احمد الحوفي وبدوي طبانة ، مكتبة نهضة مصر القاهرة ، ١٩٦٢ .
١٢- المقامات اللزومية : ابو الطاهر السرقسطي ، تح : بدر احمد ضيف ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب الاسكندرية ١٩٨٢ .

١٣- الممتع في صنعة الشعر : عبد الكريم النهشلي ، تح : محمد زغلول سلام ، ط منشأة المعارف الاسكندرية (د.ت) .
١٤- نظرة الاغريض في نصرة القريض ، المظفر العلوي ، تح : نهى عارف الحسن ، طبع مجمع اللغة العربية دمشق ١٩٧٦ .